على هامش النثر :

هذه الشجرة ... للعقاد

للأستاذ سيد قطب

هذا كتاب يجيء في إبانه لتصحيح مقاييس كثيرة في عالم التفكير والشعور ، وفي عالم الأخلاق والاجتماع ، تجاه مسألة من أكبر مسائل الحياة ، بل تجاه مسألة الحياة : مسألة الجنسين ، وعلى أي أساس تقوم بينهما العلاقات .

هو كتاب يجيء في إبانه لأنه يرتفع بهذه المسألة فوق السفسطات الذهنية ، وفوق تقاليد « الصالونات » وفوق الفتنة التافهة أو المقرفة بالمرأة « المسترجلة » التي كادت تصبح زيًّا من أزياء « الودة » يفتن بعض الرجال « المتأنثين » فتنة الأزياء الجديدة للمرأة في كل زمان !

يرتفع بها فوق هذا كله ليردها إلى منطق الحياة ، وإرادة الطبيعة . ثم إلى وظائف المجتمع وقوانين الأخلاق ، المستمدة من منطق الحياة ومن إرادة الطبيعة . وقد آن لنا أن نرد كثيراً من الأوضاع إلى هذا المنطق الأصيل ، إذا شئنا أن نرجع إلى سواء الفطرة الخالدة ، التي قد تفسد في بعض الأجيال للابسات خاصة ؛ ولكنها تعود إلى الصلاح حتماً ، لأن الحياة لا تستقيم طويلاً في عزلة عن هذه الفطرة الأصيلة .

والمسألة حين ترتفع إلى هذا المستوى ، لا يعود الحديث فيها هو الحديث عن حقوق المرأة وحقوق الرجل ؛ ولكن عن حقوق الحياة من وراء المرأة ووراء الرجل ، ولا يعود الرجع فيها إلى إرادة هذا الجنس أو ذاك ؛ ولكن إلى إرادة الطبيعة التي صاغت الجنسين ، لتصل بهما جميعاً إلى تحقيق أغراضها وأغراض الحياة .

ومن هنا نصل إلى المنطق الفاصل ، الذي يعود كل منطق سواه عبثاً وسفسطة ، وتظرفاً يصلح « للصالونات » والمجتمعات ؛ ولا يصلح لبناء الحياة وإقامة المجتمعات !

* * *

والعقاد هنا في ميدانه الأصيل : ميدان التحليل والتعليل ، للبواعث النفسية والكوامن الفطرية ، والسمات الشخصية . وهو الميدان الذي يقف فيه متفرداً في الشرق العربي الحديث .

ويجب أن نقف هنا وقفة قصيرة لتوضيح ما نعنيه بالتحليل والتعليل . فليس أكذب على العقاد من شبهة شائعة عنه عند من لا يفرقون بين ألوان المنطق الإنساني في الحياة والفنون .

تقوم هذه الشبهة على أساس أن المنطق الفكري هو الذي يغلب على كتابات العقاد ... وهذا في الواقع هو مفرق الطريق - في اعتقادي - بين من يفهمون ومن لا يفهمون . بل بين من يشعرون ومن لا يشعرون ، حين يتذوقون الفنون !

إن للعقاد منطقاً قوياً جارفاً ... هذا صحيح ... ولكن أي منطق ؟ إنه « المنطق الحيوي » كما عبرت عنه في مقالة سابقة في الرسالة منذ أكثر من عام . وذلك حيث أقول :

« مدرسة العقاد هي مدرسة المنطق الحيوي . والنسبة هنا إلى « الحياة » وإلى « الحيوية » جميعاً ... إلى « الحياة » لأن مرد الحكم على كل قول وكل عمل هو ما تقوله الحياة وما تصنعه ، ومنطقها هو المنطق المطاع في جميع الأحوال .

كلُّ ما تَصنعُ الحياةُ يُرجَّى من بنيها قبولُهُ واغتفارُه فإذا أنكروا قبيحاً ففي القبـــح من الموت لونُه أو شعاره

« وإلى « الحيوية » لأن مرد الحكم على كل قول وكل عمل هو باعثه ، ومدى الحيوية في هذا الباعث . وقد تتشابه مظاهر الأعمال والأقوال ، ولكنها تتفق في « الرصيد » المكنون لها من الباعث الحيوي ، فيتوحد الحكم عليها . وقد تتفق مظاهرها ، ولكنها تختلف في الرصيد ، فيكون ذلك مناط الاختلاف » .

إلى أن جاء في ذلك المقال نفسه :

« ولقد كان العقاد - بما فيه من يقظة الحس وقوة الحواس - وشيكاً أن يبذل إعجابه كله للحياة المحسوسة الظاهرة ، وللحيوية المتدفقة في الحس والغريزة ، لولا قسط من « الصوفية » - ولا يعجب أحد لهذه الكلمة - في العقاد إيمان عميق بقوة مجهولة تصرف الحياة والناس ، وتسيطر على أقدار الفرد والنوع (والصوفية في أساسها البسيط هي هذا الإيمان بالمجهول) . ولكن هذه القوة المجهولة التي يؤمن بها العقاد إنما تصرف الحياة والناس ، وتسيطر

على أقدار الفرد والنوع لمصلحة هذه الحياة نفسها ، وللرقى بالإنسانية فى معارج الكمال ، لا لغرض آخر من الأغراض التائهة المجهولة .

وهذا القسط من الصوفية — بهذا المعنى — يمتزج بالحيوية الحسية ، فيخرج منهما مزاج جديد ، فيه من هذه وفيه من تلك ، على غير تمييز بينهما ولا انفصال .

« ولقد كان العقاد كذلك — بما فيه من صحو الذهن ويقظة الوعى — وشيكا أن يبذل قواه كلها للفكر والمنطق ، لولا فيض من حيوية الطبع ، يجرف قوى الذهن والوعى ، فتستحيل جنوداً لهذا الطبع الحى ، تضرب بسلاحه ، وتستمد منه القوة ، وله عليها السيطرة فى النهاية ! »

* * *

فى هذا الذى اقتبسناه إيضاح لطبيعة المنطق عند العقاد ، ولأسس التحليل والتعليل التى نعنيها . وفيه كذلك تفسير لكل آراء العقاد فى الكون والحياة ، وفى الأدب والفن ، على السواء.

وما لهذا أو ذلك وحده سقنا هذا الاقتباس . ولكن لأنه يصلح كذلك أساساً للحديث عن « هذه الشجرة » !

إنه يتحدث عن أسلحة المرأة وأسلحة الرجل فى الحياة ، فيردها إلى أهداف الحياة وإلى مصلحة النوع ، وإلى إرادة الطبيعة . فسلاح المرأة هو الإغراء ، وسلاح الرجل هو الإرادة . وتعليل ذلك فيما يلى :

« وليس للمرأة أن تريد غير هذا النوع من الإرادة ، لأسباب عميقة فى أصول التركيب والتكوين .

« وموقف الجنسين من الاستجابة لمطالب النوع يهدينا إلى حكمة هذا الفارق من طريق قريب .

فالذكور من جميع الحيوانات قد أعطيت القدرة — بتركيبها الجسدى — على إكراه الإناث لاستجابة مطالب النوع طائعات أو مقسورات . ولا يتأتى ذلك للاناث على حال من الحالات الجسدية ، ففاية ما عندهن من وسيلة أن يهيجن الرغبة فى الذكور وأن يجعلنهم يريدون ، ولا يستطيعون الامتناع عن الإرادة .

« فهذا الفارق ملحوظ فى أعمق أعماق التركيب الجسدى من كلا الجنسين ، منذ نشأ الفارق بين ذكر وأنثى فى عالم الحيوان . وحكمته ظاهرة كل الظهور ، لأنها هى الحكمة التى توافق بقاء النوع ، وارتقاء الأفراد جيلا بعد جيل .

« فالإغواء كاف للأنثى ، ولا حاجة بها إلى الإرادة القاسرة . بل من العبث تزويدها بالإرادة التى تغلب بها الذكر عنوة ؛ لأنها متى حملت كانت هذه الإرادة مُضيَّعة طوال مدة الحمل بغير جدوى. على حين أن الذكور قادرون إذا أدوا مطلب النوع مرة ، أن يؤدوه مرات بلا عائق من التركيب والتكوين ، وليس هذا فى حالة الأنثى بميسور على وجه من الوجوه .

« وإكراه الأنثى على تلبية إرادة الذكر لا يضير النوع ولا يؤذى النسل الذى ينشأ من ذكر قادر على الإكراه وأنثى مزودة بفتنة الإغواء ؛ فهنا تم للزوجين أحسن الصفات الصالحة لإنجاز النسل : من قوة الأبوة ، وجمال الأمومة ، وتم للنوع مقصد الطبيعة من غلبة الأقوياء الأصحاء القادرين على ضمان نسلهم فى ميدان التنافس والبقاء ...

« وعلى نقيض ذلك لو أعطيت الأنثى القدرة على الإرادة والإكراه لكان من جراء ذلك أن يضمحل النوع ويضار النسل؛ لأنه قد ينشأ فى هذه الحالة من أضعف الذكور الذين ينهزمون للاناث ...!

« وكيفما نظرنا إلى مصلحة النوع وجدنا من الخير له أبداً أن يتكفل الذكور بالإرادة والقوة ، وأن تتكفل الإناث بالإغواء والتلبية ، بل وجدنا أن فوارق البنية قد جعلت السرور فى كل من الجنسين قائماً على هذا الأساس العميق فى الطباع . فلا سرور للرجل فى إكراهه على مطلب النوع ، بل هو منغص له ، مضعف من لذة حسه . أما المرأة فقد يكون استسلامها لغلبة الرجل عليها باعثاً من أكبر بواعث سرورها ، ولعله أن يكون مطلوباً لذاته كأنه غرض مقصود . بل هو فى الواقع غرض مقصود لما فيه من الدلالة على توفق الأنثى إلى إغواء أقوى الذكور . ومن البداهات الفطرية أن تتظاهر المرأة بالألم والانكسار فى استجابتها للنوع ، لأنها تفطن ببداهتها الأنثوية إلى هذا الفارق الأصيل فى خصائص الجنسين »

***

يمثل هذا المنطق المستلهم مباشرة من الحياة يسير العقاد فى « هذه الشجرة » ، فيتحدث عن : « غواية المرأة ، وجمال المرأة ، وتفاوت الجنسين ، وتناقض المرأة ، وحب المرأة ، وأخلاق المرأة ،

وحقوق المرأة ، والجنس ، والحب ، ومعاملة المرأة » وهى الفصول التى تضمنها كتابه ، ثم يختمها « بمقتطفات عن المرأة من كتب المؤلف» تتساوق مع آرائه التى أبداها فى الكتاب، وتدل على عمق هذه الآراء فى نفسه ، وأصالتها فى طبيعته ، وأنها ليست وليدة الاطلاع وحده ، ولا وليدة التجربة وحدها ، ولكنها قبل هذا وذلك وليدة الطبع المستقيم ، والفطرة السليمة ، التى تستمد عناصر شعورها وتفكيرها من صميم الحياة والطبيعة .

* * *

ولولا أننا معجلون — لضيق الفراغ — لاقتبست هنا كثيراً من الفقرات الدالة على هذا كله فى ذلك الكتاب ، الذى أعده من أعظم ما كتب العقاد

ولكن هنا ملاحظة جديرة بالتسجيل . ذلك أن العقاد فى كتابه هذا إنما يتحدث عن « الأنثى الخالدة » وراء أوضاع المجتمع ، ووراء أزياء الحضارة ، الأنثى التى طعمت من الشجرة المحرمة — لأنها ممنوعة — وأغوت رجلها فأكل ، والتى لن تزال تطعم من كل شجرة محرمة — لأنها ممنوعة — وتغوى رجلها فيأكل ! وتأويل هذه الفتنة بالممنوع ، وتأويل قدرتها كذلك على الإغواء هو الذى تكفل به بعض فصول الكتاب !

والعقاد مهيأ بطبيعته ، لأن تتكشف له « الأنثى الخالدة » من وراء المرأة المتجملة ، والأوضاع الطارئة . وهو القائل فى كتابه « شاعر الغزل » عن طبيعة عمر بن أبى ربيعة :

« إنما تأتى خبرة ظرفاء المجالس من تقارب الإحساس بين المرأة وبين هذه الطائفة من اللاهين والمتنزلين . فهم يحسون كما تحس ، أو على نحو قريب مما تحس ، وهم يشبهونها بعض الشبه فيصدقون فى الحكاية عنها ، والتحدث بخوالج نفسها . وفرق بعيد بين هذا وبين الرجل الذى يعلم طبع المرأة وهو يخالفها فى طبعها ، ويستجيش ضمائرها ، لأن هذه الضمائر تجاوبه مجاوبة الأنثى للذكر ، فيعرف من مجاوبتها كيف تضطرب نفسها ، وتتقلب هواجسها وخواطرها »

الرجل الأول هو عمر بن ربيعة ، والرجل الثانى هو العقاد . وإن هذه الاستجاشة وتلك الخبرة الناشئة عنها لواضحتان كل الوضوح فى هذا الكتاب !

سيد قطب

بين حربين

تأليف

محمد عبد الفتاح ابراهيم

ساغ أركان الحرب

دراسة مفصلة لتاريخ العالم بين الحرب الماضية والحرب الحالية كى يمكن تجنب الأخطاء والعمل لإيجاد سلم دائم فى عالم ما بعد الحرب .

الثمن ١٥ قرشا عدا أجرة البريد

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

شارع الشيخ محمد عبده رقم ١٢ بجوار الأزهر

تليفون ٥١٣٢٢ — ص . ب الغورية رقم ٧١

أكبر المكاتب العربية وأشهرها

بها أعظم استعداد لنشر المؤلفات الحديثة والكتب القديمة . . . . . .